العملاق

في عام١٩٥٥م. لم تكن المدارس الاعدادية منتشرة في القرى الكبيرة.. بَلْةَ الصغيرة.

في قريتنا الطيبة (وهي من قرى جنوبي مدينة الكرك) كانت المدرسة تنتهي بالصف السادس أي كانت مدرسة ابتدائية. مما اضطرني في ١٩٥٦ أن أنتقل إلى قرية مجاورة اسمها – العراق – لأدرس فيها الصف الأول الإعدادي أي الصف السابع.

بسرعة حصل تعارف بيني وبين لفيف من أبناء الصف. أما هواش جحدر.. فلم آلفه.. نفرت نفسي منه منذ أن رأيته وقد صّدقت المعرفة فِراستي: كان حنطي اللون أطول طلاب الصف، لا يحسن لبسه البنطلون والقميص تبدو على وجهه سيما الشر والعباطة.. وقد كشفت الأيام عن ولد مشاكس، لا يترك أحداً إلا تحرش به.. حتى أنا.. الذي جئت للدراسة لا لهدف آخر تحرش بي، بعد أول امتحان أخذناه في العلوم كانت علامتي أعلى علامة... أقبل نحوي ودفع في صدري قبل أن يتكلم ثم قال:

– جئت «لتكوّش» علينا.. لتغلبنا.. لا يجوز أن تحصل على

أعلى علامة؟

قلت وقد استعددت للدفاع عن نفسي:

– وهل منعتك من الدراسة، وأن تحصل على أعلى علامة؟

كوّر قبضة يده ولكمني على خدي.. ضربته كفاً على خده الأيسر والتحمنا.. حاول الطلاب أن يفصلو بيننا، ولكننا انفصلنا بسهولة عندما رأينا مدير المدرسة – الأستاذ مفيد – (ولا أعرف من اسمه إلا هذا المقطع الأول) أشار إلينا: تعالا.. لم يلتفت إليّ.. قال لهواش:

– «ولَكْ» ياولد ياعفريت.. لا تترك أحداً من شرك!!

أنا أْعرف أن هذا الطالب مؤدب، فلماذا تتعارك معه..؟

ضربه.. كَفًّا.. أمره أن يقف على باب الإدارة. أشار إليّ أن اتبعه.. وقفت على باب الإدارة.. أشار إليَّ: أَنْ أَدْخُلْ. جلس على مقعده، وقفت أمام الطاولة.. سألني عن السبب.. فأجبته بما كان.. حرّك رأسه، علامة الحيرة، ثم قال: اذهب إلى صفك..

لم أدرِ ما الذي كان بين المدير وبين هواش بعد ذلك، ولكن الذي أدريه أنه لم يعد يتعرض لي أو يتحرش بي.. ولعلّ السبب الأول أنني تحاشيت الاحتكاك به..

لم أره بعد تلك السنة بعد عشر سنوات.. كان شاباً فارع الطول ذا شوارب كثيفة.. يرتدي زيّاً عسكريًّا، وتلمع على كتفه نجمتان، انقبض صدري عندما تصادفنا وجهاً لوجه في مدينة

الكرك سلمت عليه سلام مجاملة. ولكي أتخلص من الوقوف معه عرضت عليه أن نشرب العصير.. اعتذر فودعته ومضيت..

بعد ذلك بقرابة سنة.. التقيت بأحد زملائنا في الأول الاعدادي، وهو من قرية العراق.. قال لي. بعد حديث طويل عن الماضي وتذكر طلاب الصف واحداً واحداً، عندما تذكرنا يوميات هوامش، قال:

– أعرفت؟

– ماذا..؟

– كاد يقتل أباه وأخاه..

– أعوذ باللّه، لماذا؟

– طلب من أبيه أن يسجل باسمه قطعة أرض دون إخوته، ولمّا لم يقبل أبوه.. احتدم شجار بينهما وقف أخوه محمود إلى جانب أبيه... أخرج مسدسة.. صوبه نحو أبيه.. في اللحظة التي ضغط فيها الزناد.. كانت يد القدر قد أرسلت أحد الرجال الشجعان، جاء من خلفه، وصفق يده إلى أعلى فطاشت الطلقات في الهواء فكان أن سلّم اللّه.

انقطعت أخباره عني عشر سنوات أخرى.. ثم التقيت بمعلم مثلي من قرية العراق.. أخذت أسأله عن معارفي من أهل القرية، وعن زملائنا في المدرسة... وعندما ذكرت له هواش.. صمت هنيهة، ثم تأفف وقال: – ضاع..

obeikandl.com

حرت في معرفة كنه جوابه، قلت:

– ماذا تقصد؟

قال وقد تجهم وجهه:

تزّوج هواش زوجته الأولى بعد حصوله على شهادة الدراسة الثانوية مباشرة، كانت فتاة قرويّة بسيطة، من النوع الذي يؤمن بطاعة الزوج، مهما كان متجبراً متعجرفاً.. وفي العام الماضي تزوج – مرة ثانية – من فتاة متعلّمة، تؤمن بالحرية المسؤولة، وترى أن لها الحق في أن تناقش وأن تأخذ وتعطي، وألا تستجيب للتعليمات والأوامر اللامنطقية. لهذا دب الخلاف بينه وبينها من اليوم الأول..

بعد بضعة أشهر.. تعقدت العلاقة بينهما حتى أخذ يضربها كلما خالفته في أمر من الأمور.. عندئذٍ.. زاره أبوها.. (وهو رجل عظيم الشأن له من البنين اربعون، وعشيرته عديد الحصى).. ونصحه بأن يغير معاملته معها وأن يتفهم مكانتها: أنها ابنةُ ذَواتٍ وأنها متعلمة لا تقاد من أنفها، وإنما تريد زوجا يفهمها ويتفاهم معها.. لكنه أجابه بكل صلف وجبروت بأنه لن يغير من معامته لها.. وإنما عليها أن تخضع له وتستلم وإلاّ.. فليس لها إلا السوط..

قلت: غريب هذا الشخص... لم يترك صلفه وجبروته حتى مع زوجته!!

قال: وبعد أشهر أخرى.. تعقدت الأمور أكثر فأكثر.. في هذه المرّة لم يزرها أبوها، وإنما اتصل به هاتفيًّاً.. وعرض عليه أن يطلقها وهو يعيد له كل ما دفعه من صداق... لكنه أجابه بصلفه المعهود بأنه لن يتنازل عنها، وسيرغمها على طاعة أوامره.. اضطر أبوها أن يهدّده بأنه، إنّ لم يكفّ عن ضربها أو يطلقها.. فإنه سيدفع إليه جمهرة من أبنائه وأقاربه.. يأخذونها منه.. عنوة.. ولكنه ردّ بأنه سيدفع أي عدوان بما هو أشدّ منه..

علّقت بكلمات قليلة: للأسف ما يزال على عباطته التي عهدناها..

قال: لكنك لا تدري ماذا حدث بعد ذلك؟

بلهفة سألته: ماذا حدث؟

قال: في نوبة من نوبات غضبه، حين لم تستجب لأوامره،.. شدّها على عمود الكهرباء أمام منزله، عارية إلا من الملابس الداخلية، وأخذ يضربها ضرباً مبرّحاً..

سريعاً وصل الخبر إلى أبيها.. دفع بجمهرة من أبنائه ورجال عشيرته.. أحاطوا به.. لم يقف إلى جانبه سوى ولديه الكبيرين من زوجته الأولى، تخلت عنه – لسوئه وصلفه – عشيرته.. حاول الصبيان استعمال السلاح فأرداهما المهاجمون قتيلين.. فوراً.. أمّا هو فقد اكتفى باستعمال قبضة يده، لأنه لم يجرؤ على استعمال المسدس..، انهار سريعاً.. اللكمات المتتابعة التي

انهالت عليه.. جعلته ينهار سريعاً.. أُغشي عليه وعندما أفاق.. أدار عينيه كالأبله فيما حوله ثم سأل المهاجمين:-

- ماذا تطلبون؟

- أن تطلق سعاد.

وافق فوراً ومضى معهم متحاملاً على نفسه وطلقها في المحكمة.

قلت: أنا آسف لما انتهى إِليه.. هذه نتيجة الغرور والعناد..

قال محدثي: لم ينتهِ الأمر عند هذا الحدّ!

استفسرت: وماذا بعد؟

قال: في اليوم الثاني اتصل به أبوها هاتفياً، وأمره أن يسقط حقوقه عليها.. فامتثل للأمر، وذهب إِلى المحكمة وأسقط حقوقه كاملة..

وفي اليوم التالي.. أمره أن يتناز لها عن ربع ثروته.. فامتثل للأمر، ومضى إِلى دائرة الأراضي... وتنازل لها عن ربع أرضه ثم دفع إِلى موفدٍ من أبيها ربع ماله الذائب..

صدمتني هذه الأخبار، ولم أكد أصدق، فتساءلت:

- وأين صلفه وجبروته؟

حدّق فيّ قليلاً ثم قال.. بل طلب منه أبوها ماهو أكثر من ذلك.. طلب منه أن يحسّن معاملته مع زوجته الأولى وبناته منها.. فامتثل للطلب، وإِن كان يراوغ في التنفيذ.. علماً أن

زوجته الأولى لا تَمُتُّ إلى هذا الرجل العظيم بأي صلة.

علقت: ما بقي شيء يطالبه به..

قال، وهو يرفع حاجبيه:

- الأيام حبالى.. ولا ندري ماذا تلد..

لم تلفت انتباهي الجملة الأخيرة، ولكنني ركزت اهتمامي فيما انتهت إليه شخصيّة هواش جحدر، تساءلت:

- لماذا انقلب من عملاق إلى شبح ذليل مذعن؟

قال: سألت طبيب غدد وأعصاب.. فأكد أن الصدمة العصبية التي أعقبت اللكمات ورؤيته لولديه صريعين.. أثرت في إفرازات الغدد عنه.. فحولته من شخص شرس متغطرس إلى شبح خانع ذليل..

لم أملك نفسي، بعد هذه الأخبار المذهلة، إلا أن أضرع إلى العلي القدير أن يَمُنَّ علينا بالصحة والحكمة، وأن يحيينا ما دامت الحياة خيراً لنا، وأن يميتنا عندما يمسي الموت راحة لنا من كلِّ بلاء.

obeikandl.com